جورج د. قرم

بحث عن

الفــــن
و
الحضـــــــــارة

في الزمن المعاصر



آنسات أفينيون [تفصيل]
بيكاسو

طبعة جديدة من "بحث عن الفن والحضارة في الزمن المعاصر" (1966) بقلم جورج د. قرم، مترجمة إلى العربية والإنكليزية وتكمِّلها نصوص إضافية، لمناسبة معرض "الإنسانوية التصويرية اللبنانية: جورج د. قرم (1896-1971)" الذي ينظمه معرض الفنون في الجامعة الأميركية في بيروت لعام 2013.

ISBN 978-9953-586-08-3

طُبِع في لبنان لدى شركة مطبعة سليم دبوس (ش.م.م)

نُشِر هذا البحث عام 1960 في مجلة "الشراع" اللبنانية، عدد 619، بتاريخ 2 كانون الأول/ديسمبر. هذه نسخته الكاملة.

بيروت، في الأول من تشرين الأول/أكتوبر 1966

الفن والحضارة في الزمن المعاصر

لا يمكن فهم تطوّر الآداب والفنون منذ بداية هذا القرن من دون التوقّف قبلاً عند تطوّر حضارتنا، لأن الآداب والفنون ليست سوى الجوهر الخالد للحضارات التي تطبع منحنياتها الصاعدة أو الهابطة.

عبّرت الفنون الجميلة التي ولّدتها النهضة الأوروبية، ببلاغة مذهلة، عن المثال الأعلى للحضارة الإنسانوية المسيحية. وعلى غرار الحضارات التي سبقتها، لم تكن هذه الحضارة لترى النور وتزدهر لولا القواعد الأخلاقية والاجتماعية والدينية التي حفّزت تطوّر الملَكات الفكرية والإدراكية لدى الكائن البشري، وأنشأت سدوداً حول غرائزه الحيوانية من أجل توجيه طاقته نحو خدمة أنشطته الإبداعية.

وقد أضافت الحضارة الإنسانوية المسيحية في القرون الأربعة الماضية، إلى عناصر العظمة التي قدّمتها الحضارات السابقة، مبدأً ذا قدرة حضارية استثنائية، عبر تأكيد الطبيعة المقدّسة للكائن البشري، وحرّية إرادته، وحقّه في تطوير شخصيّته، ونضوج ملَكاته في الإشعاع البشري لحقيقة مسيحية متسامية.

هذا الكائن البشري في أوروبا النهضة، الذي كان يجتاح كيانه إيمانٌ متجذّر في داخله وفي مصيره الممجّد، إن لم يكن في هذه الدنيا، ففي عالم ما بعد الموت؛ والذي كانت القواعد المفروضة

عليه تضغطه كما رقّاص من الفولاذ الفاخر، شعر بأن قوّة غازِية لا تقاوَم ترفعه، وهي تارة قوة حيوانية بالكامل وطوراً قوة روحية، كما أنها أحياناً مزيج من الاثنين معاً.

فذهب يغزو قارّات مجهولة، وثروات مادّية وروحية غير مستكشَفة وكان يُعتقَد أنه يتعذّر الوصول إليها؛ وقد أطلق نبوغه المبدع العنان لمختلف المبادرات، فحرّك تطورات وثورات وأبقى شعلتها مضرمة.

وفي غضون أربعة قرون، توسّعت أمبراطوريته الفكرية على امتداد أوروبا بكاملها، لا بل تجاوزتها، وامتدّت أمبراطوريته الجغرافية على مساحة القارات الخمس.

الكتب المقدّسة، مصدر للروحانية

طوال هذه الملحمة، لم يكفّ الكتاب المقدّس والأناجيل عن التأثير بروحانيتها كاملةً على كل ثورات الحيوانيّة البشرية التي تسارع دائماً إلى استخدام القوة الهمجية أو الحيلة لإشباع نهمها.

شكّلت الأناجيل على وجه الخصوص أساساً لتلقين القيم الروحية والثورات الأخلاقية التي نحقّقها عبر نبذ المادّيات، ومحبّة القريب، واحترام الحقيقة، والتواضع، وتقبّل المعاناة الجسدية وتقلّبات الدهر. فكل القواعد تصبح سهلة من خلال الإيمان بحياة من النعيم الأزلي بعد الحياة على الأرض.

وقد تجلّت هذه القواعد نفسها في الآداب والفنون. فقد حُوِّلَت النزوات الحيوانية، والمشاهد البغيضة، ورذائل الأفراد أو المجتمعات وفضائلهم إلى تراجيديا نبيلة أو كوميديا مرِحة، وجرى التعبير عنها بلغة محتشمة ومتحفِّظة من دون أن تفقد شيئاً من طاقاتها الموحيَة والمثيرة للمشاعر.

أما الموسيقى فقد نشرت، في نغمات ناعمة وخفيفة أم خفيضة وقوية، ومتناغمة على الدوام، اندفاعات الإيمان، ومآسي الأهواء وأفراح النفوس المنشرحة، متفاديةً التنافر والمقاطع غير المنظّمة والجمل اللانَغمية أو غير المعبِّرة.

وقد عبّرت الفنون التشكيلية، بقدر الفنون الأخرى، وربما بصورة أفضل منها، وبإخلاص بليغ، عن ولادة هذه الحضارة وتطوّرها ونضوجها. وساهمت، من خلال التمجيد، في تخليد ذكرى إنسان النهضة في إيمانه ومآسيه وهزليّاته، وفي مآثره الكبرى، في عزّ ثرواته المادّية والروحية، وفي معظم الأحيان، في بؤسه.

إلى الرسم الساذج وغير المتقن إنما المشعّ للحَميّة المتصوّفة التي كان يتمتّع بها الإنسان البدائي، وإلى الألوان النقيّة والمضيئة النادرة التي كانوا يستخدمونها بتفنّن آسر، أضاف فنّانو النهضة شيئاً فشيئاً معرفة الأشكال الطبيعية الدقيقة، والرسم المنظوري، والقيَم، وظلال الأجسام، وتلاوين لوحة الرسّام التي لم تكفّ منذ ذلك الوقت عن التطوّر. فرضت هذه العلوم التي تتكامل في ما بينها، على الفنّان الخضوع لمرحلة طويلة من التعلّم، وإتقان قواعد أتاحت له أن يثبّت على القماش أو في الصخر، بسهولة وبلاغة، الكائنات البشرية والمشاهد في زمانه، والرؤى والمفاهيم التي تُجسّد عوالم ومخلوقات سريالية.

جفاف النُّسْغ

لكن في نهاية القرن الماضي، بدا أن النُّسْغ السخي الذي غذّى، طيلة أربعة قرون، التوسّع الحضاري الأكثر استثنائية في التاريخ، قد أصابه الجفاف. والشعوب التي كانت القوى الكادحة العظيمة خلف هذا التوسّع، لم تعد تتطلّع سوى إلى الاستمتاع بهدوء بالمكتسبات التي تحقّقت.

إلا أن قوى أخرى، من أصول أوروبية لكنها نمت وتطوّرت في أراضٍ غير أوروبية، ظهرت إلى العلن، وهاجمت الصرح الضخم لهذه الحضارة، وسدّدت له ضربات قاسية جداً، إلى درجة أنها تمكّنت في أقل من خمسين عاماً من تدمير أمبراطوريته الجغرافية وتعريض أمبراطوريته الثقافية للخطر.

والمقصود بهذه القوى اتّحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية والولايات المتحدة الأميركية.

فهاتان القوّتان اللتان تبدوان غريمتَين في الظاهر بسبب التعارض في أيديولوجياتهما، ساهمتا، من خلال مسارَين مختلفَين، في إرساء سيطرة المادّة في العالم، بصورة طوعية في حالة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، وبصورة لاإرادية في حالة الولايات المتحدة الأميركية.

كارل ماركس، الأوروبي، هو الذي زوّد المسؤولين عن الثورة الروسية بالأسلحة الأيديولوجية التي سمحت لهم بفرض ديكتاتوريتهم المادّية داخل حدود بلادهم وممارسة تخريب مدروس للبنى الاجتماعية والأخلاقية داخل حدود الدول الأخرى، ومن بينها الدول الأوروبية!

ودينامية الروّاد الأوروبيين الذين انطلقوا للاستيلاء على الثروات في أميركا الشمالية، هي التي تابعت، بعد السيطرة على هذه الثروات وتجاوُز عقيدة مونرو، تقدّمها، من خلال التجارة والصناعة، في حملة الغزو التي وصلت إلى مختلف أنحاء العالم، بما في ذلك أوروبا!

مما لا شك فيه أن رؤساء الدول والزعماء الروحيين في الولايات المتحدة لا يزالون متمسّكين بشدّة بالمثل العليا الإنسانوية المسيحية، وأن السواد الأعظم من الأمّة لا يزال يدّعي تبنّي هذه المثُل، إلا أنه صحيح أيضاً أن ممارسات هذه الأكثرية تنزع نحو تدمير هذه المثل العليا عبر تركيزها في خدمة الثروات ووسائل الراحة المادّية.

فرويد يدخل على الخط

في موازاة تفشّي النزعة المادية، تعرّضت الطبائع والأعراف في الولايات المتحدة لتأثير مدمِّر بالدرجة نفسها وعصيّ أيضاً على المقاومة، بسبب نظريات سيغموند فرويد، الأوروبي، حول الكبت والعُقَد النفسية.

وقد أطلقت الخلاصات التعسّفية التي استنتجتها العلوم النفسية الأميركية من هذه النظريات، حركة واسعة للتحرّر من القواعد التي لا غنى عنها للأفراد كما للمجتمعات المتمدِّنة.

فحصل الأولاد بذلك على ضوء أخضر للتصرّف بحسب ما تمليه عليهم غرائزهم التي هي غرائز حيوانية صغيرة، ما أدّى إلى تجريد الأهل من دور المربّين الذي لطالما كان مناطاً بهم منذ

القدم، وباتوا غير مبالين بتصرّفات أولادهم وأحوالهم.

وحصل الأهل الذين تحرّروا من واجباتهم الأبوية، على ضوء أخضر لتغيير الشريك، الزوج أم الزوجة، عند أوّل صعوبة يواجهونها في حياتهم الزوجية، وبحسب تقلّبات رغباتهم التي قيل إنه لا يجدر بهم كبتها خوفاً من العقَد النفسية.

وهكذا تفكّك الإطار العائلي الذي يجمع أفراد الأسرة الواحدة في متّحد أخلاقي وعاطفي ومادّي، وتفكّكت معه الحضارة التي يشكّل ركن الزاوية فيها. وبات الشعار السائد: كلٌّ لنفسه، أي العودة إلى شريعة الغاب.

لا شك في أن القيود الأشد قساوة التي فُرِضَت على الإنسان هي قيود الديانة المسيحية. لكنها لم تسبّب له على الإطلاق أيّ عُقَد نفسية، أو تُضعِف حيويته، بل على العكس، ساهمت في تركيز طاقاته وتوجيهها نحو أنشطة روحية ومادّية خلّاقة. لقد استمدّت صمام أمانها من اعتراف الفرد بمشكلاته وعذاباته الباطنية ومناقشتها مع مرشدين دينيين مترفّعين عن شؤون الدنيا، وضالعين في نقاط الضعف البشرية والوسائل التي تساعد على تحويل هذه العذابات والمشكلات سلاماً داخلياً وقوّة مشعّة.

استبدَلتْ العلوم الحديثة المنبثقة عن هذه النظريات الفرويدية هؤلاء المعرِّفين والمرشدين بأطبّاء نفسيين مهنيين يُحدّدون نصائحهم وعلاجاتهم بالجرعات مقابل تعرفات.

ولم نشهد، على مر تاريخ الشعوب المتمدِّنة، اختلالات في التوازنات النفسية بقدر تلك التي نشهدها الآن بسبب تحرّر الغرائز المصحوب بالإيقاع المتسارع للتقدّم الصناعي والعلمي.

في حين أن حضارتنا كانت تفرض على الفرد الصدق مع نفسه ومع الآخرين واحترام الحقيقة؛ وفي حين أنها كانت تُبرِز فظاعة الكذب بمختلف أشكاله، وضعت الماركسية الستالينية والمركنتيلية الأميركية الكذب في صدارة الأسلحة التي يستخدمانها في الاختراق والغزو: الغزو السياسي في حالة الأولى، والاقتصادي في حالة الثانية.

الدعاية التجارية

يُسوَّق الكذب، في شكل دعاية تجارية في الولايات المتحدة، بواسطة حشدٍ من الاختصاصيين الضالعين في علوم حشو عقول المستهلكين، أي جماهير المواطنين في كل البلدان: هذا المشروب الأميركي مصدرٌ عجائبي للحيوية والجاذبية، إلخ... وبعض الأفلام الأميركية التي ليست سوى مجرد عمل تافه ومبتذل تُصوَّر وكأنها أهم ما أنتجته الصناعة السينمائية وتُحفة التحف؛ ولا يمكنكم الفوز بقلب المحبوب إلا باستخدام هذا المسحوق أو ذاك الصابون، إلخ...

هذا النوع نفسه من الدعاية استخدمه التجّار المتخصّصون، والنقّاد الذين يعملون لحسابهم، لإطلاق فنّ الرسم الطليعي المنتَج على مستوى صناعي وتسويقه.

كانت هذه الأكذوبة الأميركية أو الدعائية، التي تستند إلى مبالغات ضخمة وتفاؤل شديد، ولا تهدف سوى إلى تسويق منتجات صناعية، لتثير الابتسام ولم تكن لتستدعي منّا أكثر من هزّ الكتفَين

لامبالاةً، لو أنها لم تكن تشكّل نموذجاً لمبالغات أكثر إيذاء ولم تكن تسيء إلى أخلاقيات شعب.

أما ما يثير الخشية أكثر، وبدرجة كبيرة، فهو أكذوبة الماركسية الستالينية! لأنها تهاجم المفاهيم الأكثر قداسة في إنسانويتنا، وتسعى إلى استعباد الأفراد والشعوب.

ترتدي هذه الأكذوبة، التي تتكيّف مع ظروف الدول المستهدَفة وذهنياتها، أشكالاً وألواناً شديدة التنوّع والإغراء. ومن خلالها، لم ينفك الكرملين يدّعي أنه حامل لواء الفضائل، مع العلم بأنه الأشد افتقاراً إلى هذه الفضائل، ولم يكف عن انتقاد القشّة في عين خصومه، بعنف كلامي مفرط، من دون أن يرى الخشبة في عينه.

لم ينفك الكرملين يدّعي أنه في طليعة الحضارة لأن علماءه حقّقوا معجزات في مجالاتهم، ولأنه حرم الإنسان من هذا الامتياز الذي اسمه الروح، ومن استخدام ملَكاته الروحية التي خنق الكرملين تطلّعاتها، لأنه لا يرى في الإنسان سوى حيوان نفعي ذكي، متلقٍّ للبروباغندا التي يروّجها النظام السوفياتي، ومستعدٍّ للتضحية، وهذا الاستعداد هو مصدر وجوده الوحيد في عيون النظام، من أجل بناء العالم المادّي الذي تصوّره ماركس ونادى به. في نظر أتباع ماركس، لا وجود للإنسان بالمعنى الإنسانوي للمصطلح!

في الولايات المتحدة الأميركية، يواجه هذا الإنسان المخاطر الأكبر لأنه خاضعٌ لآليّة تهافت الحشود، التي هو جزءٌ منها، نحو القوّة والراحة المادّيتَين، فهذه الآلية تتحكّم به وتجعله أسير نمطيّةٍ معمّمة على الجميع.

تشكّل الوطأة الساحقة لهذه النزعة المادّية المزدوجة، تهديداً خطيراً لحضارتنا الإنسانوية، بآدابها وفنونها. توهِمنا بانتصار الآداب والفنون المادّية التي انبثقت عنها، والتي جُبِلت بها! وهكذا ساد تحريرُ القواعد التقليدية، وسيطرة الغريزة، واستخدام الوسائل والتقنيات الحديثة للدعاية التجارية. وفُرِض على الفنّان أن يتبع أنماطاً وتيارات تتجدّد باستمرار على غرار تصاميم الموضة النسائية أو الإنتاجات الصناعية، حتى ولو كانت هذه التيارات وهذه الأنماط بعيدة كل البعد عن شخصيته.

والموسيقى التي كانت تشجّع، في القرون السابقة، التأمّل والنشوة الروحية، تتلذّذ الآن بإيقاظ وإثارة الغرائز الحيوانية للإنسان، وجهازه العصبي والحسّي من خلال استرجاع نقرات الطبل الزنجية، والصيحات المتقطّعة والمتأوّهة والممزِّقة لسكّان الأدغال: أشخاص يدخلون في حالات من النشوة، وحيوانات تطلق صراخاً مسعوراً، على وقع صرير حادّ ورتيب ومتفجّر بطريقة فجائية، إلخ... وفي هذا الإطار، ابتدعت الموسيقى "آلات جاز إيقاعية" تتناسب تماماً مع النزعة الجديدة، لتحلّ مكان الكمان والتشيلو والقيثار والناي والبيانو التي كانت تؤلّف الأوركسترا في الحضارة الإنسانوية الأوروبية.

الحلقة الجهنّمية

تراجَع رقص الباليه، والمينويت، والرقصة الرباعية، والفالس، وسواها من الرقصات الكلاسيكية والرشيقة والمدروسة، وحلّت مكانها رقصات القبائل الاستوائية: خبطٌ رتيب

وهوسي بالأقدام، تخلُّع الوركَين، سقوط ونهوض مصطنعان، تخلّع مفاصل العنق والساقَين والبطن؛ هيجان صَرْعي إيروتيكي، كلّها موجودة، وصولاً إلى السمّ الذي أضافه للتو شاب أميركي سرعان ما افتُتِنت به بعض الفئات الشبابية!

ولم يعد الشِّعر سوى تسلسل غير مفهوم من المقاطع الصوتية والجمل التي تُمليها غريزة مظلمة، ويُخاطب الحساسية المظلمة للقارئ أو المستمع الذي يحصل على الضوء الأخضر لإضفاء معنى على تلك المقاطع الصوتية والجمل، هذا إذا كان حريصاً على أن يكون لها معنى.

لم يعد لرهافة اللغة، ورصانة المصطلحات، وأناقة الأسلوب، مكانٌ في الأدب الذي لم يعد يُبرِز عذابات الحب وتأنيب الضمير، والأهواء، والفضائل والرذائل لدى الأفراد والمجتمعات الذين لا يزالون منطبعين بمفاهيم الاستقامة والنقاوة الأخلاقية والعدالة! بل يستعرض الأدب، بتعابير فجّة وجافة، وبلغة مباشرة وغليظة، انفلات الغرائز والشهوات المادّية، والنزوات الجنسية التي تؤكَّد وتُمارَس بوقاحة.

أما في ما يتعلّق بالفنون التشكيلية، فقد تمّ تفكيكها تحت غطاء البحوث التي أجراها بعض الفنّانين الأصيلين المتلهّفين لإيجاد شكل مناسب للتعبير عن أحاسيسهم، وفي شكل خاص، تحت غطاء المغامرة السيّئة للرسّامين الإنطباعيين الذين لم يُعطوا حقّ قدرهم وتعرّضوا للاستهزاء في أواخر القرن الماضي. وقد أُنجِز هذا التفكيك على أيدي تجّار محنّكين بمساعدة رسّامين مرضى أم فوضويين من مختلف أنحاء أوروبا، وكذلك صانعي لوحات ماكرين كان شغلهم الشاغل الوحيد والغزير الإنتاج، الشذوذ عن المألوف الذي يتجدّد باستمرار ويحصلون عليه من خلال التخلّي عن العناصر المكوِّنة للوحة، الواحد تلو الاخر.

وإزاء عجزهم عن إضافة ثروات جديدة إلى الثروات المكتسبة في اللغة التشكيلية، كما فعل أسلافهم، فكّكوا هذه اللغة وجرّدوها تدريجاً من قواعد النحو والصرف الخاصة بها، وتراكيبها التعبيرية، ومن مرادفاتها! فتحوّلت مجرّد تعاقب من الحاكيات الصوتية غير المفهومة.

وبعد إلغاء تصحيح الرسم، أي الأشكال، حذفوا الرسم المنظوري، والقيَم، وظلال الأجسام، وفي الآخر، الموضوع. وباتت لوحاتهم تقتصر على بعض بقع الألوان التي تُجمَع على هوى الارتكاسات الحواسيّة أو بدفعٍ من ذكاء ماكر!

الفنون التشكيلية التي كانت تتطلّب عشر سنوات من الدراسة قبل أن يسمح الفنّان لنفسه بأن يعرض أعماله أمام الجمهور في المعارض السنوية، لم تعد تقتضي اليوم، بعدما باتت تقتصر على الألوان، سوى بضعة أسابيع من التلقين التمهيدي كي يصبح ممكناً للوافد الأول بأن يعرض أعماله في إحدى آلاف صالات العرض التي تضعها زمرة التجّار في تصرّفه، وكي يمنحه هؤلاء التجّار والصحافة والنقّاد المتخصّصون الخاضعون للتجّار لقب "فنّان كبير أصيل". لم يعد بالإمكان تطبيق أي قاعدة أو معيار لتقييم هذه الأعمال، ما عدا ردّ الفعل الحواسي الفردي إزاء هذا الربط أو فك الارتباط بين الألوان.

كان الفنّان يُجري من قبل عشرات الدراسات الإعدادية، ويكرّس عاماً كاملاً لتصوّر عمل واحد وتنفيذه. إلا أن أعمال المدارس الحديثة تُنجَز، في غالبيتها، في بضع ساعات، لا بل في بضعة أرباع الساعة!

إنه عصر السرعة، عصر الصناعة والتجارة، عصر ازدراء القيم الروحية والأفكار النيّرة!

منذ مطلع هذا القرن، تعاقبت هذه المدارس بوتيرة متسارعة، وأبرزها: الكوبية، والدادائية، والنيوانطباعية، والتوحّشية، والنبوية، والتعبيرية، والدوامية [مدرسة "الحد الأقصى من الطاقة، ما يجسّد ميكانيكياً الفعالية الأكبر"! [كذا] مقتبس من البيان الرسمي]، والفن اللاشكلي، والفن التجريدي...

لم تكفّ كيلومترات وأطنان من الكتابات عن إطلاق أعمال تُسمّى بالثورية ادّعت إعادة صنع الفنون التشكيلية بحسب الرؤية والحساسية التقدّميتَين للزمن المعاصر، من أجل إعطاء هذا العالم الجديد فنّاً جديراً به.

لا شك على الإطلاق في أنها أعطته فناً جديراً به وجديراً بأن يدخل متاحف الفنون الحديثة، في ما يشهد على تطوّر هذه الحقبة! ففنون الشعب هي دائماً على صورة مثله العليا وأعرافه؛ إلا أن القول بأنها أعطته فناً جديداً هو الخطأ بعينه!

بعض الحقائق

من يصدّق هذه الأعمال يكون جاهلاً بتاريخ الفنون التشكيلية أو متعامياً عنه.

في الواقع، يكفي التوقّف عند المدارس الجديدة الثلاث الأكثر أهمية في الفن الحديث التي تدّعي أنها مدارس أصيلة: السريالية، والفن اللاشكلي، والفن التجريدي، لنحصل على الأدلة التي تُثبت أنها مارست كلّها فنوناً قديمة قدَم البشرية.

السريالية: كانت جزءاً من فنّ الأيقونات في كل الأديان منذ أقدم العصور. كان حورس، وأوزوريس، وأنوبيس، إلخ. شخصيات سريالية من الميثولوجيا الفرعونية.

وكان البُراق والقنطور وعروس الماء والسَّربيروس وفون والمَدوسة مخلوقات من صنع الأساطير اليونانية والرومانية القديمة.

كان شيفا ذو الأذرع المتعدّدة جزءاً من الميثولوجيا الهندوسية.

ليس الملائكة والشياطين المجنَّحة في الأيقونات المسيحية سوى شخصيات سريالية، إلخ.

وفي القرن الرابع عشر، عاش الرسّام السريالي الأعظم في كل العصور: هيرونيموس بوش.

الفن اللاشكلي: هذا الفن مارسه دائماً الرسّامون الكلاسيكيون الذين كانوا يلجأون إليه في شكل دراسات إعدادية. وكان يُطلَق على هذه الدراسات اسم مخطّطات مرسومة. وكانت بالنسبة إلى الرسّامين بمثابة "المحاولات الأوّلية" أو المسوّدات بالنسبة إلى الكتّاب.

ولم يكن أحد يعتبر أن هذه المخطّطات تستحقّ أن تُعرَض، فما بالكم بأن تُباع. إلا أن العبقرية التجارية في هذا القرن حوّلتها شكلاً من أشكال الفن المستقل الذي أُطلِق عليه بدهاء اسم الفن اللاشكلي!

الفن التجريدي: هذا الفن لم يكن سوى فن زخرفي! وقد مارسه منذ أقدم الأزمنة مُزخرِفون كانوا يتكتّمون بتواضع عن هويّتهم. ونجد نماذج عنه في كل مكان في الطبيعة في شكل ملايين التراكيب من الخطوط والألوان. خطوطٌ وألوان في لوحة من الرخام المضلّع، في جناح فراشة، في ذيل طاووس، في أوراق بعض النبتات، في ملاط جدار عفِن، في لوحة معدنية صدئة، في الألواح التشريحية للأمعاء، إلخ... وتطول اللائحة إلى ما لا نهاية.

صنع الرسّامون المزخرِفون الملايين من أنماط الرسوم التجريدية لحساب مصنِّعي القماش المطبوع، منذ القدم حتى يومنا هذا.

إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أن جزءاً كبيراً من التجريديين الحاليين لم يعد يكترث للتناغم الزخرفي، وينكبّ فقط على التصنيع السريع والفوري لألغاز فرويدية مشهدية.

خلاصة القول، وبما أنه لا جديد تحت الشمس، سوى في المواد العلمية، اكتفت مدارس الرسم الجديدة التي رعاها تجّار، بتقليد الطبيعة أو أعمال زخرفية قديمة.

ومن جهة أخرى، استمتعت كثيراً في استنساخ التماثيل الفظّة والمكشِّرة للقبائل البدائية في القارات الخمس، وكذلك رسوم الأولاد والمصابين بانفصام الشخصية وملوّناتهم.

بسبب هذه المدارس، أصبح نسخ الأصنام الصخرية أو الخشبية، المبتذلة أو المتنافرة، التعبير الأقصى عن الفنون التشكيلية وتقدّمها. ولم يسبق أن رأينا هذا العدد من المتمدّنين ينتشون أمام الصور الشنيعة للطواطم وسواها من الأصنام الزنجية أو الأزتيكية.

لم تستطع ردود فعل الجمهور، وموجات استنكاره المتفجّرة، وتعبيره عن عدم فهم هذه الأعمال، والأدلّة الدامغة التي رمى بها في وجه هؤلاء الفنّانين، عن تشابه أعمالهم مع أعمال البربر والساخرين ومختلّي التوازن والأولاد وتلاميذ المرحلة الابتدائية والرئيسات وذوات الحوافر - لم تستطع أن تلغي انتشارها الواسع المظفَّر، بفضل الحملات الدعائية الضخمة التي نظّمها التجّار، ومساهمة بعض النخب المثقّفة على الساحة الدولية، والمتبجّحين وحديثي النعمة في مختلف البلدان، وكذلك المزادات العلنية القسرية والمزيّفة.

اللافت في هذا التطوّر للفنون التشكيلية هو أنه في الوقت الذي كانت فيه القوى المادّية تخنق الروح البشرية، كانت المدرسة التعبيرية، ومدرسة بيكاسو، والفن اللاشكلي تُفكّك، في أعمالها، الأشكال البشرية وتُشلِّع أوصالها وتحطّمها، إلى أن ألغت المدرسة التجريدية الإنسان بالكامل من أعمالها.

تدهور الإنسان

نقصد بذلك الإنسان الذي يمتلك روحاً، هذا الكيان الصغير الزائل إلا أنه الكائن الوحيد في هذا العالم القادر على إدراك سرمديّة الخلق ولغز مصيره المثير للشفقة؛ هذا الكائن الذي هو، بحكم ذكائه وإحساسه، القيمة الأعلى في الكون؛ هذا الإنسان في حقائقه الجسدية والأخلاقية الذي كان في صلب اهتمامات الفنون الإنسانوية التي تُعرَف بـ"الكلاسيكية". لقد شُطِب هذا

الإنسان من القاموس الماركسي ومن الأعمال التي توصَف بالطليعية.

الوجه المأسوي في هذا النزاع الذي يضع حضارتنا في مواجهة القوى البربرية التي تشنّ عليها حملة شعواء، هو أن تلك القوى تعتقد أنها في طليعة الحضارة لأنها اجترحت معجزات في كل ميادين العلوم، ولأنها ابتكرت الآت تزداد إتقاناً لجعل الحياة البشرية أكثر راحة على المستوى المادّي، من دون الاكتراث للانزعاج النفسي الشديد الذي تُغرق الإنسان فيه، وقد نسيت على ما يبدو أن الحضارة لا يمكن أن تكون سوى ذات طبيعة محض أخلاقية واجتماعية.

تخال تلك القوى أنها في طليعة الحضارة لأنها ضاعفت أعداد المدارس المجانية والجامعات المجهَّزة بكل وسائل الراحة العصرية، لكن الدراسات الإنسانية والقواعد الكلاسيكية استُبدِلت فيها بالعلوم النفعية والرياضة.

موسى، وكونفوشيوس، وبوذا، ويسوع، ومحمد الذين كانوا أعظم عباقرة الحضارة في البشرية، لم يتلقّوا التعليم في أي مدرسة، ولم يُفيدوا من أي من وسائل الراحة المادّية، كما نعرفها اليوم وكما باتت مبتذلة. وهبنا المسيح أناجيله وهو في حالٍ من الفقر المادي التام.

الدراسة الوحيدة التي استهوتهم، والتي استحوذت على ذكائهم واهتمامهم كانت تلك المرتبطة مباشرةً بالحياة، أي دراسة الكائن البشري، وطبيعته المتناقضة، وعذابات مصيره، وأوجه اللامساواة الجسدية والفكرية بين الأشخاص التي تتسبّب بنزاعات مؤلمة وباستغلال الإنسان لأخيه الإنسان. من أجل معالجة هذه الأشكال الطبيعية من الظلم، وقسوة الغرائز، وضعوا قوانين وقواعد أخلاقية واجتماعية وبشّروا بها، كما أعلنوا في الوقت نفسه عن وجود إله واحد أو أكثر يُنزِل العقاب والثواب بالبشر الذين يجدر بهم أن يقدّموا إليه جردة حساب بأعمالهم.

في مواجهة أناجيل المسيح، أناجيل الحب والتسامح، التي كانت في أساس الحضارة الإنسانوية في أوروبا النهضة، تُروِّج العقائد الماركسية للصراعات الحاقدة والقاتلة بين الطبقات الاجتماعية، وإعادة تصنيف الكائن البشري في النوع الحيواني البحت، مع الإبقاء على امتياز ملَكاته العقلية، إنما لا يُسمَح له باستخدامها سوى في الميادين العلمية النفعية أو في ترويج القوى الماركسية.

أوروبا الإنسانوية التي بسطت نورها وأمبراطوريتها، في القرون الأربعة الماضية، على القارّات الخمس، تبدو الآن مجرّدة من ردود فعلها الدفاعية ومبادراتها الجريئة. قد يقول قائل إنها تعجز عن إبعاد الغزو الهمجي للأعداء الذين أتاحت لهم العلوم، إلى جانب إطلاق العنان للغرائز الحيوانية لدى الإنسان، حيازة الذرّة التي يسلّطونها فوق رؤوس البشرية مثل سيف كوني رهيب.

إنه لأمرٌ فتّاك إذاً أن الآداب والفنون التي تُقدِّم نفسها كتعبير عن التقدّم الأقصى، لم تعد تنبثق سوى عن ملَكات الإنسان الغريزية، والفوضوية في معظم الأحيان؛ وأنها لم تعد تتوجّه إلى ذكائه وحساسيّته الروحية أي إلى ملَكاته الأكثر نبلاً، إنما فقط إلى حواسه التي تستمتع بالتملّق إليها أو إثارتها؛ وأخيراً إنه لأمرٌ فتّاك أن يُحكَم عليها بالتجدّد باستمرار وفقاً لإيقاع صناعي يزداد تسارعاً، وأن تَستخدم بالتالي، بهدف الانتشار، الآلة الدعائية الضخمة التي ابتدعتها وطوّرتها النزعة التجارية الأميركية.

ما عدا بعض الاستثناءات النادرة جداً التي يُنسَب الفضل فيها إلى فنّانين أصيلين ومرموقين، ليست الغالبية الساحقة من اللوحات والمنحوتات التي تدّعي أنها في طليعة التقدّم الفنّي والتي يسقط المتبجّحون والنقادون انقياداً أعمى مغشياً عليهم أمامها، سوى أعمال "بلا شكل" أو "مبهمة"، هذا إذا لم تكن ببساطة متنافرة أو تندرج في إطار الصناعات الميكانيكية. فهي لم تعد تعبّر سوى عن تدهور الذكاء والإحساس الجمالي لدى الإنسان، كما أنها تنكبّ على التعجيل في حدوث هذا التدهور الذي نستسلم له ونتعوّد عليه أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، وينتهي كثرٌ باعتباره طبيعياً وجميلاً وحتى مرغوباً فيه!

متذوّق الجمال، ومن شدّة الاحتكاك بامرأة قبيحة رغماً عنه، لا يعود يتأثّر ببشاعتها. والأريستقراطي الذي يسكن لوقت طويل في كوخ فقير بسبب الظروف القاهرة، لا يعود يشعر بالانزعاج. حتى إنهما قد يحبّان في نهاية المطاف الواقع الذي يتسبّب لهما بالمعاناة. وعند وصولهما إلى هذه المرحلة، يتّفق الجميع على إعلان انحطاطهما!

بارقة أمل

حمداً لله! أوروبا التي تعرّضت منذ نصف قرن تقريباً للهجوم المتواصل من هذه المدارس الجديدة، تجاوزت هذه المرحلة! لا تزال حضارتها تمتلك، في العالم الشاسع، قوى سليمة هائلة تظلّ حتى يومنا هذا غير مبالية إلى حد ما بالأعمال المتنافرة وادّعاءات القوى المادّية.

إن تطوّر الفنون المنبثقة عن النزعة المادّية الآخذة في الانتشار دفع بها، بفعل عملية تفكيك متواصلة، نحو مأزق لا يمكنها الخروج منه إلا بالعودة إلى القواعد التقليدية للتعبير بطريقة مفهومة عن أفراح هذا الزمن وهمومه.

حاجات الفهم والاحتياجات الروحية لدى البشر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالطبيعة البشرية، شأنها في ذلك شأن الغرائز الحيوانية. فهي تشكّل إلى جانب هذه الغرائز القطبَين المتناقضين اللذين تتأرجح الطبيعة البشرية بينهما بصورة مستمرة. وعندما تشغل واحداً من طرفَي النقيض هذين، تشعر بالانجذاب الأقوى نحو طرف النقيض الثاني. والتاريخ حافل بالأمثلة في هذا السياق.

ألا نشهد اليوم، في كل مكان حيث أُطلِق العنان لغرائز الأولاد والبالغين، أن المجتمع يطالب بالعودة إلى القواعد التقليدية المفيدة؟...

أليست نظرية تصوّفية، في أمبراطورية المادّية الكاملة، هي التي دفعت الشباب الماركسي الروسي إلى الموافقة على التضحية بحياته على الأرض - الحياة الوحيدة التي يؤمن بها هؤلاء الشباب! - من أجل أن يبنوا، من خلال الحرمان والمعاناة، عالماً أفضل تستمتع به الأجيال المقبلة فيما يتم إقصاء الشباب الماركسي منه!

ما من مكان كما الولايات المتحدة، هذا المعقل العملاق للقوّة الصناعية، نشهد فيه انبثاق شعلة الروحانية عالياً جداً، ولو كانت أحياناً محلية الطابع ودخاناً أكثر منه نار، وكذلك الحاجة الشديدة إلى الإيمان بإله سلام وطيبة. بين مئات الأمثلة، يكفي التوقّف عند عدد الدعوات الدينية التي تتجلّى في العلن، وعند أديرة اللاترابيين التي تتأسّس والرهبان اللاترابيين الذين

يقيمون فيها، والذين تجاوزت أعدادهم إلى حد كبير أعداد الأديرة والرهبان في أوروبا القديمة! يكفي أن نذكر العدد الكبير جداً من المنتمين إلى المذاهب الدينية المتعدّدة التي أسّسها منوَّرون أو مستكشِفون منذ مطلع هذا القرن. ما من بلد اخر في العالم يُقدِّم مساهمات طوعية عفوية للأعمال الخيرية، بهذه السرعة والسخاء، من أجل مساعدة البائسين والمنكوبين في العالم بأسره ونجدتهم.

لن تختفي حضارتنا ذات الفضائل المشعّة، حتى ولو تمكّنت التطوّرات العلمية من تجريد مسيحيّتنا من سياقها الألوهي. لا تزال تعاليم يسوع الناصري، وسوف تبقى، التعبير الأسمى عن الحضارة الإنسانية لأنها تؤثّر في فضائل القلب والعقل من أجل بناء التناغم والعدالة الاجتماعيَّين، وخلق الجمال الروحي، وإعادة إرساء السلام بين البشر وفي قلوبهم.

في الصراع الذي يضع العقائد الماركسية والتهافت خلف المادّيات وانفلات الغرائز في مواجهة قواعد حضارتنا، نعتقد أن أوروبا التي أعطت القوى العدوّة خميرتها لن تتخلّف عن منح العالم بزور حضارة إنسانوية جديدة منبثقة عن الحضارة الأوروبية ومكيَّفة مع احتياجات هذا العصر الصناعي والتفتيتي. حضارةٌ تُعيد آدابها وفنونها الآداب والفنون العبثية والفوضوية للنزعة المادّية الآخذة في التفشّي، إلى مكانها الصحيح.

منذ عام 1960، ظهرت مدارس عدّة توصَف بالطليعية، بينها الـ Bop وOp-Arts.

وقد جاءت الأعمال المنبثقة عن هذه المدارس، فضلاً عن الغالبية الساحقة من أعمال الفن التجريدي، لتكرّس القطيعة التي كانت قد بدأت مع النزعة الكوبية منذ مطلع هذا القرن، بين أنشطة تلك المدارس والفنون الجميلة للحضارات الكبرى.

هذه الأعمال هي مجرّد أنشطة حِرَفية، وليست أحياناً أكثر من مجرد أعمال يدوية حيث الهدف الأساسي هو الشذوذ عن المألوف، وحيث لا وجود على الإطلاق لأيّ شكل من أشكال الروحانية.

كان لدى الفنّانين الرسّامين والنحّاتين في كل الحضارات الكبرى - الغربية كما الشرقية - المثل الأعلى نفسه:

خلق أشكال طبيعية متقنة ومتناغمة قدر الإمكان، بدافع من مشاعرهم وانفعالاتهم وأحلامهم وتصوّراتهم الخاصة، وكذلك انطلاقاً من مثلهم الدينية العليا.

ونجد مثالاً على ذلك في اللوحات العشر الآتية.



نقلته إلى العربية نسرين ناضر




ISBN 978-9953-586-08-3
90000 >
9 789953 586083